شباب ضد الاستلاب

يشعر الناس بالخوف والفزع على ضياع أمة ما عند رؤية هويتها علي المحك عند التكالب علي انتزاع ماضيها واستبدال ثقافتها بثقافة أخرى طمساً أو تشويهاً، وذلك يسمي اصطلاحا "الاستلاب" أو"التغريب"، لكن هيغل الألماني الذي أطلق هذا المصطلح المثير للجدل وعنى به فيما عنى فقدان الإنسان وجوده الجوهري. وبلاغة معناه هذا يُعبّر عن عجز أصحاب لغة الضاد في إيجاد قطرة من بحور هذه اللغة الوارفة لتوصيف حالة الخنوع والخضوع التي تعيشها هذه الأمة، وهو أبلغ تعبيراً علي رد الفعل غير المناسب الذي يماثل الفعل في الاتجاه ويضاده في المقدار.

ما استفزني للكتابة أملا في عرض حالة التغريب التي تعيشها أمتانا العربية والإسلامية، على الرغم من أنه موضوع مستهلك من حيث استهدافه كتابة وبحثاً ومقتول تنظيراً إلا أن طحينه صفر كبير، وأنا على استحياء أجدني مستخدماً هذا المصطلح كحالة تعبيرية، ذلك لأن الاستلاب تعدى الفضاءات المفتوحة والمتاحة والمباحة ليتحول من المسخ والتشويه إلى الخطف ثم التبديل، من حضارات وثقافات لم يقتنع أهلها بمزاحمتنا بثقافاتهم المستوردة والمعلبة في مواجهة حضاراتنا الضاربة العراقة عبر إلباسها لثوب العُرِي (العولمة)، بل تجرأت في محاولة "تعملق" خجولة محاولة سلب الأمة الإسلامية هويتها وعنوانها ودينها، لكن لا ضير عليهم في ذلك بل بالأساس لماذا نهاجمهم، ففكرهم ورغم منطقه الخطير ومحتواه الفقير إلا انه استحق الدخول لعقول وألباب شباب الأمة لأنهم جاهدوا واجتهدوا من أجله تشكيلاً ونشراً، رغم أنها الاجتهاد والمجاهدة والصبر والمصابرة سمة هذه الأمة وعنوانها منذ اختيارها وتكليفها بأمانة الإسلام، فقد قال الله تعالى في كتابه الكريم : "يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا"، فأمر الله للمؤمنين أن يصبروا على دينهم، ولا يدعوه لشدة ولا رخاء ولا سراء ولا ضراء، وأمرهم أن يصابروا الكفار، وأن يرابطوا المشركين. فالصبر والرباط يكون على الشدائد والمكابدات لا على المتعة والرخاء، لأن المكابدة هي ثمن ريادة وقيادة هذا العالم.

إن الاستلاب تمكن منا ثقافياً واجتماعيا واقتصاديا إلا إنه وصل حد التمكن عند استهدافه الدين؛ فالتنصير والمجموعات التبشيرية المنتشرة في بلاد المسلمين كانتشار الخلايا السرطانية في جسم الإنسان هي أقصى ما يمكن أن يصل إليه هذا الغزو. فاجتماعيا وبعد أن تم مسخ القيمة الاجتماعية والأخلاقية للزواج، صار الشباب المتمدن مقلدا في الزواج بما يشبه النموذج الغربي كثيرا فكان ما كان من إقدام الشباب علي الزواج (من الجنسين) بعد عمر متأخر وما يترتب عليه من تحديد عدد مرات الإنجاب وإيلاء الإجراءات الشكلية فيه اهتماما كبيرا كتضخيم نفقاته والإسراف في ضجيج الاحتفال به، وقبل ذلك وضع العقبات أمامه، فإن ذلك كله استيراد مخل لأفكار غير مناسبة، فالزواج عند المجتمعات الغربية مقامه كلازم الفائدة في المجتمع فلا عجلة لهم فيه، عكسنا تماما فله من قيمه الحيوية والأساسية، لذلك فهذا الغزو ساهم في استيراد الفشل.

إن التقليد الأعمى في المأكل والملبس وغيرهما من مظاهر الحياة اليومية أقل خطورة من استهداف القيم الأساسية لوجود هذه الأمة؛ لأنه استهداف للمظاهر ويمكن علاجه، ويقفز للذهن سؤال: أين أخيار هذه الأمة العلماء؟ فأحيانا وأنا أتذكر مقولة الإمام الشعبي: "كل أمة علماؤها شرارها إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم" ألمس انحسارا في دورهم لأن الأخيار لا يركنون إلى إطلاق الاتهامات للآخرين بالتقصير ولا يلعنون الظلام بل يوقدون الشمعات المضيئات التي تنير طرقات الهُدَى لهذه الأمة.

الشباب المسلم في تركيا قدم نموذجاً عملياً قوياً وشامخاً في أن هذه الأمة تختفي لكنها لا تموت وتنسحب لكنها لا تغيب، فأثبت أن التحصن بالإسلام ناجع في مواجهة اختطاف هوية الأمة، فأوربا الآن تخاف شباب تركيا.. الشباب الأوربي الوحيد الذي يعزف عن مشاهدة القنوات الأوربية والعيش كما تعيش، بل إنه بادر إلى تمكين الإسلام قولا وفعلا.. فأوربا تخافه كما